



# في رحاب التّوراة

Jonathan Sacks  
THE RABBI SACKS LEGACY

دراساتٌ وحواراتٌ روحانية معمقة في النصوص التوراتية الأسبوعية مع  
الحاخام جوناثان سакс

ننقدم إلى عائلة شيل بجزيل الشكر والعرفان على دعمهم السخي لكتاب "في رحاب التوراة" (Covenant and Conversation)، وهندي هذا الكتاب الذي الحاخام حاريم شيل من اللحظة الأولى لاطلاعه عليها، خاصة وأنه عمل جاهداً على لا تطريق تعاليم التوراة التي قدمها الحاخام حاريم شيل منذ اللحظة الأولى لاطلاعه عليها، خاصة وأنه عمل جاهداً على لا تطريق تعاليمه للحقائق السطحية فقط، بل تعمق في علاقتها بالحقائق الموجودة وراءها، وبرققة زوجته آنا، تلك المرأة الاستثنائية ذات الستينَ ربيعاً، فقد أنسس الحاخام حاريم حياماً مكرسة لحبّ العائلة والمجتمع والتوراة، فكانا زوجين مميتين ومثلاً يُعتدّ به بكل ما تحمله الكلمة من معنى، الأمر الذي كان له عمق الأثر على." - الحاخام جوناثان سакс

With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

"I have loved the Torah of R' Chaim Schimmel ever since I first encountered it. It strives to be not just about truth on the surface but also its connection to a deeper truth beneath. Together with Anna, his remarkable wife of 60 years, they built a life dedicated to love of family, community, and Torah. An extraordinary couple who have moved me beyond measure by the example of their lives." — Rabbi Sacks

**عيقِف** هو النصّ الأسبوعي الثالث من كتاب "دفرييم" (أي سفر التثنية). يبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الثانية عشرة من المقطع السابع وينتهي بالآية الخامسة والعشرين من المقطع الحادي عشر.

Arabic Translation by The Connecting Hamza NGO

## روحانية الإصغاء

إنها واحدة من أهم الكلمات في الديانة اليهودية لكنها واحدة من أصعب الكلمات فهماً. وأكثر موضعين معروفين ذُكرت فيهما هما النصّ الأسبوعي السابق "فَإِنْحَنْ" بالإضافة إلى هذا النصّ الذي نحن بصدد دراسته: "اسمع يا يسرائيل، إنَّ الله ربنا إله واحدٍ" بحسب ما تذكر الآية الرابعة من المقطع السادس من سفر التثنية، وبحسب ما تذكر الآية الثالثة عشر من المقطع الحادي عشر من نفس السفر: "فَإِنْ سَمِعْتُمْ سَمِاعاً لِلْوَصَايَا الَّتِي أَمْرَكُمْ بِهَا يَوْمَ لِتَحْبُوا اللَّهَ رَبِّكُمْ وَتَعْبُدُوهُ مُخْلِصِينَ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ وَكُلِّ نُفُوسِكُمْ". ومثلما نلاحظ فإن بداية الآيتين الأولى والثانية كانت كلمة "شمع"، بمعنى اسمع، كما أن هذا الفعل موجود في بداية هذا النصّ الأسبوعي مثلما تخبرنا الآية الثانية عشرة من المقطع السابع: "فَيَكُونُ جزءاً مَا تَسْمَعُونَ هَذِهِ الْأَحْكَامِ".

إنها بالتأكيد كلمة "شمع" بالعبرية، هذه الكلمة التي ناقشت خلال مقالة سابقة<sup>١</sup> مدى صعوبة ترجمتها بدقة للغة الإنجليزية، كون هذا الفعل يحمل معاني عديدة، منها السمع والإصغاء والانتباه والفهم والاستيعاب والرد والطاعة، ناهيك عن كونها واحدة من المفردات الرئيسية في سفر التثنية، فهي تظهر في هذا السفر بما لا يقل عن اثنتين وتسعين مرة، أي أكثر من أي سفر آخر من أسفار التوراة.

ومرةً أخرى خلال آخر شهر من شهور حياته، نرى النبي الله ورسوله موسى يخاطببني يسرائيل قائلاً لهم: "شمع"، أي اسمعوا وانتبهوا والتقو، بمعنى آخر: اسمعوا ما أقول، اسمعوا ماذا يقول الله عز وجل، اسمعوا واصغوا إلى ما يُريدكم منا، فقط لو كان بإمكانكم أن تُنصتوا وتسمعوا... لأنَّ الديانة اليهودية هي معتقدٌ يقوم على الإنصات والإصغاء والاستماع، وهذا أحد أهم مُساهماتها الأصلية في الحضارة.

لقد قاتلت الثقافة الغربية بالأساس على ركيزتين هما الحضارة الإغريقية القديمة وحضارة يسرائيل القديمة. في الوقت نفسه، يوجد اختلاف كبير بين الحضارتين، فحضارة الإغريق تقوم على أساس الرؤية والمظاهر، وأعظم إنجازاتها ترتبط بالعين والرؤية والمشاهدة. كما أنها أنتجت جزءاً من أعظم الإنجازات التي عرفتها البشرية في مجال الفن والعمارة وتحت التمايل. أضاف إلى ذلك أنَّ أبرز سماتها هي الفعاليات الجماعية مثل المسرحيات والألعاب الأولمبية التي كانت بمثابة عروض للناظرين، بمعنى أنها عرضٌ الهدف منها هو المشاهدة. ونجد أنَّ أفلاطون أحد أبرز فلاسفتها كان ينظر للمعرفة على أنها شكلٌ من الأشكال العميقية للرؤيا، أي رؤيا المُثل الحقيقة الموجودة وراء ما تُظهره الأمور.

إن هذه الفكرة القائمة على أساس أن المعرفة هي شكلٌ من أشكال الرؤية لا زالت طاغية على التعبير المجازي في الغرب حتى يومنا هذا. فعلى سبيل المثال نجدُ هذه الكلمات الإنجليزية مُرتبطة بالرؤية والمُشاهدة والنظر: مثل كلمة (*insight*) والتي تعني النظرة أو البصيرة، وكلمة (*foresight*) التي تعني الاستبصر أو الاستطلاع، وكلمة (*hind sight*) التي تعني النظر في الأمور بعد فوات الأوان، بالإضافة إلى كلمة (*observation*) التي من معانيها المُشاهدة، وكلمة (*perspective*) التي تعني المنظور أو وجهة النظر، وكلمة (*illustrate*) التي تعني توضيح أمرٍ ما عبر استعراضه بالرؤية، وكلمة (*illuminate*) التي تعني الإشارة إلى أمر ما بهدف رؤيته، وأخيراً وليس آخرًا عبارة (*shed light*) التي تعني تسلیط الضوء على أمرٍ ما من أجل رؤيته. وتبعدَ لغة الإنجليزية فإن الشخص عندما يفهم أمراً ما فإنه يقول عبارة "I see" ، بمعنى "أنا أرى" <sup>2</sup>.

في المقابل، نجد أن الديانة اليهودية قد طرحت بدليلاً مُخالفًا تماماً لتلك الفكرة، لأنها معتقدٌ لا يقوم على أساس رؤية الله عزّ وجلّ، فهو الإله الذي لا يمكن تجسيده بأي أمر ماديٍ أو مرجيٍ على الإطلاق، لهذا نجدُ أن نحت التماشيل – باعتبارها رمزاً مادياً مرئياً – هو شكلٌ من أشكال الوثنية تبعاً للعقيدة اليهودية. وهذا نرى كيف يذكر موسى بنى يسraelيين خلال النص الأسبوعي السابق (فِإِنْتَ حَنَنْ) بما حدث سابقاً عندما لاقوا الله عزّ وجلّ مباشرة فوق قمة جبل سيناء تبعاً لما تخبرنا به الآية الثانية عشرة من المقطع الرابع: "وَكُنْتُمْ سَامِعِي الْكَلَامِ، وَشَيْبَهَا لَمْ تَرُوا سَوْيِ الصَّوْتِ فَقَطْ". فالله عزّ وجلّ يتواصل بالآصوات، لا بالمشاهد والمظاهر، إنه يتكلّم ويأمُرُ وينادي، لهذا نرى القدسية الدينية المطلقة والكامنة في "شمع". وعندما يتكلّم الله عزّ وجلّ تجدنا نُنصِّتُ ونُصْنَى، وعندما يأمرنا تجدنا نُحاول أن نُطْبِعُ أوامرها.

وفي هذا السياق فإن الحاخام دايفيد كوهين (1887-1972م) المعروف بالحاخام "هانازير" (أي الحاخام التاذر، لأنه كان ينذر على نفسه نذوراً عديدة ألم بها نفسه) والذي كان من أتباع الحاخام الكبير أقرهان يتطرق كوهين كوك بالإضافة إلى أنه والدُ الحاخام شارل شوشوف كوهين الذي كان كبير حاخامت حيفا عند كتابة هذه المقالة، يوضح بأن جميع أشكال المجاز المستخدمة في سياق الفهم في التلمود البابلي \* تقوم على مبدأ السمع، لا على الرؤية. فعلى سبيل المثال نجد آيات تتضمن "تا شمع" (بمعنى تعال اسمع)، و"قا مشماع لان" (بمعنى هذا يعلمونا)، و"شمع مينا" (بمعنى مفهوم من هذا)، ولو شميعل لي" (بمعنى لم أوفق). كما يوجد ذرُس من الدروس والتّعاليم التقليدية اليهودية يُطلقُ عليه "شمعتا" (بمعنى ما سمع أو ما هو مسموع)<sup>3</sup>، وغيرها الكثير من العبارات المشتقة من الفعل "شمع".

وقد يبدو للوهلة الأولى بأن الفرق بين الرؤية والسمع في هذه الحالة هو فرق ضئيل، لكن الفرق بينهما شاسع جداً. حيث أننا نجدُ أن الشكل المثالي للمعرفة كان يتضمن الانفصال أو الانعزاز عن الشيء بالنسبة للإغريق، بمعنى أنه يوجدُ من يرى (أي الفاعل) ويُوحَدُ من يُرى (أي المفعول به)، لكن كلاهما ينتميان لعالم مختلف. فالشخص الذي ينظر لرسمة أو تمثيل أو ربما يشاهد مسرحية معينة في المسرح أو يتفرج على الألعاب الأولمبية فإنه ليس جزءاً من الفن الذي توضحه الرسمة أو التمثال، كما أنه ليس جزءاً من الدراما التي توضحها المسرحية، ولا جزءاً من المنافسة التي تتضمنها الألعاب الرياضية، فهو مجرّد مشاهد لها وليس مشاركاً فيها.

في الوقت نفسه فإن السمع والكلام ليسا من أشكال الانفصال عن الشيء، بل هما شكلان من أشكال الانخراط فيه. فهما يخلقان العلاقة، والكلمة العربية المستخدمة للتّعبير عن المعرفة "داعت" تحمل معاني القرب والانخراط والحميمية أيضاً، مثلما تُخبرنا الآية الأولى من المقطع الرابع في سفر التكوين: "وَإِنَّ آدَمَ وَاقَعَ حَفَاهَ حَوَاءَ زَوْجَهُ فَحَمِلَتْ وَوَلَدَتْ" ، وهذه هي المعرفة من منظور اللغة العربية، لا من منظور الإغريق.

إننا قادرون على الارتباط بالله عزّ وجلّ وببناء علاقة به – رغم أنه دائمٌ ونحن زائلون – لأننا مُرتبطون بالكلمات. وعندما تجلّ الله عزّ وجلّ لنا فإنه كان يتكلّم معنا، وفي الصلوات والأدعية نحن الذين نتكلّم معه. وإذا أردت أن تفهم علاقة معينة سواء بين الزوج وزوجته أو بين الآباء وأبنائهم أو بين الموظف وزبّ العمل، فما عليك إلا أن تتجاهل كل شيء وتنتبه جيداً إلى الطريقة التي يُنصلّون ويتكلّمون بها مع بعضهم البعض.

\* ملاحظة توضيحية من المترجم: التلمود (بالعبرية: תַּלְמוֹד) هو النص المركزي للיהودية الحاخامية والمصدر الأول للشريعة الدينية اليهودية (الهلاخah) واللاهوت اليهودي. يعود أصل كلمة تلمود إلى الجذر العربي (ل-م-د)، بمعنى تعلم ودرس. يحتوي التلمود على التشريعات والروايات والحكايات الرمزية والأمثال والصلوات والقواعد الأخلاقية، إضافة إلى نقاشات فلسفية ودينية حول الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم كلاً من النص المكتوب وهو التناخ، والروايات الشفهية الموجودة في الميشناه والجماراه (الجماراه تضم النقاشات الحاخامية حول الميشناه). يتكون التلمود من سبعة وثلاثين كتاباً. وت تكون الميشناه من ثلاثة وستين كتاباً تنقسم بدورها إلى ستة أجزاء تسمى "سداريم" باللغة العبرية. هناك ساختان من التلمود: البابلي واليروشلمي (أي تلمود أرض يسرائيل)، حيث يوثق التلمود البابلي نقاشات الحاخامتات الذين عاشوا في أرض بابل، واليروشلمي يوثق نقاشات الحاخامتات الذين عاشوا في أرض يسرائيل، إلا أن التلمود البابلي هو الأكثر شيوعاً واستخداماً.

لقد عَلِمْنَا الإغريقُ أشكالاً للمعرفة تقوم على أساس المشاهدة والاستنتاج، خاصة في مجال العلوم والفلسفة، وقد كان أوائل العلماء وأوائل الفلاسفة من اليونان وظهرت في القرنين السادس حتى الرابع قبل الميلاد. لكن لا يمكننا أن نفهم كل شيء استناداً إلى الرؤية والمظاهر لوحدها. وفي هذا السياق أستحضر قصة معتبراً جداً موجودة في سفر شموئيل/صموئيل الأول، وهذه القصة تتحدث عن أول ملكٍ من ملوك إسرائيل وهو الملك شاؤول، والذي كان مظهراً يبدو كمظهر الملك، بمعنى أنه كان طويلاً القامة و "من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب" مثلما تخبرنا الآية الثانية من المقطع التاسع والآية الثالثة والعشرون من المقطع العاشر من سفر صموئيل الأول. وبالتالي كان الملك شاؤول يبدو كالملك من ناحية الصورة والمظهر، لكن من ناحية الأخلاقيات وصفاته الشخصية فإنه لم يكن قائداً على الإطلاق، بل كان تابعاً.

ثم أمر الله عز وجل شموئيل بأن يُنصب ملكاً خلفاً له، وأخبره بأنه سيكون واحداً من أبناء يشاي/إيشاي. فذهب شموئيل إلى يشاي وكان مُعجبًا بمظاهر واحدٍ من أبنائه وهو إلياف، فاعتقد بأنه هو الابن الذي يقصده الله عز وجل ليكون ملكاً خلفاً له. لكن الله عز وجل يقول له: "لا تنظر إلى منظره وطول قامته لأن قد رفضته، فالله لا ينظر كما ينظر الإنسان، لأن الإنسان ينظر إلى العينين، وأما الله فإنه ينظر إلى القلب" مثلما تذكر الآية السابعة من المقطع السادس عشر من سفر صموئيل الأول.

لقد قاتل اليهودية واليهود بتعليم البشر بأنه لا يمكننا أن نرى الله عز وجل، لكن يمكننا أن نُصغي إليه ويسعني إلينا. ومن خلال الكلمات المتبادلة عبر الحديث والإصلاح بإمكاننا أن نبني علاقة حميمة مع الله عز وجل، فهو بمثابة والدنا وشريكنا وحاكمنا الذي يحبنا وتحبّه. كما أنها لا تستطيع تجسيد الله عبر العلوم، ولا يمكننا إثبات وجوده عبر المنطق، فهذه أنماطٌ فكريةٌ إغريقيةٌ بحتة، ولديها أفكاراً يهوديةً أبداً. ومن منطلق يهودي بحسب إفاني أومن بأن محاولة إثبات وجود الله عز وجل من خلال المنطق والعلم تشكل طرحاً خطأً بكل ما تحمله الكلمة من معنى<sup>5</sup>، فالله عز وجل ليس مفعولاً به، بل هو الفاعل، والنمط اليهودي للعلاقة مع الله يقوم على أساس المحبة والحميمية والرهبة والإجلال.

وفي هذا السياق أستحضر مثالاً لشخصية يهودية معاصرة ومذهلة بكل معنى الكلمة، وهو رجل كان خلال السواد الأعظم من حياته مُجافياً للديانة اليهودية، ألا وهو سيفموند فرويد، والذي أطلق على التحليل النفسي عبارة "العلاج بالكلام" أو كما يوصف بطريقه أكثر دقة على أنه "العلاج بالإصلاح"<sup>6</sup>، وهو علاج يقوم أساساً علىحقيقة أن الإصلاح الفعال يعتبر بحد ذاته علاجاً. فقط بعد انتشار التحليل النفسي - خاصة في أمريكا - بدأ استخدام عبارة "I hear you" (يعني أنا أسمعك) في اللغة الإنجليزية كتعبيرٍ عن التواصل عبر التعاطف وجدانياً مع من تُصغي إليه.<sup>7</sup>

وهنالك أمرٌ روحيٌّ جداً في مسألة الإصلاح، فهو أكثر شكلٍ فعالٍ من أشكال حل الصراعات حسب معرفتي. فهنالك الكثير من الأسباب التي من شأنها أن تخلق صراعاً، لكن ما يزيد من أمده هو شعور أطرافه - أو على الأقل طرف واحد - بأنه لا يوجد من يسمعهم ويُصغي لهم. بمعنى آخر، لم يتمتع أحدُ "صوت الألم"، الأمر الذي أدى إلى فشل الوصول إلى حالة من التعاطف الوجداني مع صاحب الألم. ومن هنا المنطلق منهم لماذا يعتبر استخدام القوة أو الدعوة إلى مقاطعة طرفٍ من أطراف الصراع أمراً مدمراً للذات إلى حدٍ كبير، فهذه الأمور قد تُخْمِدُ نار الصراع لفترة معينة، لكن الصراع سيعود مرة أخرى وسيحدث بشكل أكثر من السابق. وفي هذا السياق أستذكر قصة إبوف/أيوب الذي عانى كثيراً من الظلم، ولم تُواصه محاولات من حاولوا شد أزرته ومواساته عبر الجدال معه، لأنّه كان مُصرّاً على أنه مُحقٌ، بل لأنّ ما أراده هو أن يُصغي إليه أحد وأن يكون صوتة مسموعاً. لهذا، ليس من قبيل الصدفة أن يستلزم تحقيق العدل هذا الأمر: "audi alteram partem" ، بمعنى أصغي إلى الطرف الآخر.

لها يحتل الإصلاح مكانة هامة في صميم العلاقات، وهو يعني أن تكون مُنفتحين تجاه الآخر وأن نحترمه، وبأن مشاعره ورؤيته للأمور تُشكل أموراً هامة بالنسبة لنا. وبهذا نمنح الآخرين الإذن ليكونوا صادقين، حتى لو أدى هذا إلى أن تُصبح عرضة للتاثير بما سيقولونه، فالأخير يُصغي للأبنائه، ورب العمل الجيد يُصغي لموظفيه، والشركة الجيدة تُصغي لزبائنها وعملائها، والقائد الجيد يُصغي إلى من يقودهم. مع التأكيد على أن الإصلاح لا يعني بالضرورة أن نوافق على ما نُصغي إليه، لكنه بلا شك يعني الاهتمام والاكتراث بمن نُصغي إليهم. بعبارة أخرى: الإصلاح هو المناخ الذي تنمو فيه المحبة والاحترام.

إننا نؤمن في الديانة اليهودية بأن علاقتنا مع الله عز وجل هي بمثابة عمل تعليمي تربوي متواصل مع بقية البشر، إذ كيف نتوقع من الله أن يُصغي إلينا حين نعجز عن الإصلاح لشريك أو زوج أو ابن أو شخصٍ يتأثر بعملنا؟ وكيف نتوقع ملاقاً لله إن لم نتعلم كيف نُصغي؟ ففي جبل حوريف/سيناء علم الله عز وجل النبي إلیاهو/إلياس بأنه - أي الله - لا يوجد في العواصف والزلزال ولا في النيران، بل في "قول دماماه دقاه"، أي في "الصوت الخافت المنخفض" مثلما تذكر الآية الثانية عشرة من المقطع التاسع عشر من سفر الملوك الأول، وهذا ما أعرّفه على أنه الصوت الذي بإمكانك سماعه فقط حين تكون مُصغياً.

إن الحشود والجماهير الغفيرة عادةً ما تتأثر بالمتحدثين العظام وتحمّس عند سمعهم، لكن الحياة تتغير بالمستمعين العظام. وسواء كان هذا بيننا وبين الله عز وجل أو بيننا وبين بقية البشر، فإن الإصغاء هو بمثابة المقدمة والخطوة الأولى على طريق المحبة.<sup>8</sup>

1. أنظر المقالة التي ناقشت فيها النص الأسبوبي "مشياً بهم" والتي تحمل عنوان "الطاعة والسمع".
2. المصدر:

(Chicago: University of Chicago Press, 1980) *Metaphors We Live By*, George Lakoff and Mark Johnson

3. يظهر هنا في الصفحات الأولى من كتابه "قل نفعواه" (صوت النبوة).

4. من باب التأكيد والتوضيح، يستخدم كتاب زوهار (الكتاب الذي تقوم عليه الصوفية والقبالة اليهودية) مصطلحاً مادياً ظاهرياً وهو "تا حيزى" (معنى تعال وانظر). وهنالك علاقة وطيدة بين الصوفية اليهودية وأفكار أفلاطون والأفكار الأفلاطونية الحديثة، فما هو مشترك بينها هو اعتبارهم للمعرفة على أنها شكل من أشكال الرؤية العميقية.

5. من باب التأكيد والتوضيح، كان هنالك الكثير من الفلاسفة اليهود الكبار الذين عاشوا في فترة القرون الوسطى من قاموا بذلك تحت تأثير الفلسفه المتأثرين بأفكار أفلاطون وأفكار أرسطو الحديثة بواسطة عدد من كبار الفلاسفة المسلمين، ومن يمكننا استثناؤه من هذه الحالة هو العالم يهوداه هاليبي في مؤلفه "الكرياري" (كتاب الخزري).

6: المصدر:

See Adam Philips, *Equals* (London: Faber and Faber, 2002), xii. See also Salman Akhtar, *Listening to Others: Developmental and Clinical Aspects of Empathy and Attunement* (Lanham: Jason Aronson, 2007).

7. لاحظ وجود الفرق بين التعاطف والتعاطف الوجوداني. فعندما تقول لأحد ما "أنا أسمعك وأصغي إليك" فإنها طريقة لإشعار الطرف الآخر بالصدق، بمعنى أنني ألتفت وأصغي لما تشعر به لكن ليس بالضرورة أن اتفق مع ما تشعر به أو أن اتفق معك أنت شخصياً.

8. لقراءة المزيد حول هذا الموضوع بإمكانكم الرجوع إلى المقالة التي تطرقت للنص الأسبوبي "بريشيت" والتي تحمل عنوان "فن الإصغاء" والمقالة التي تطرقت للنص الأسبوبي "بِيْدَار" والتي تحمل عنوان "صوت السكون".



## حَوْلَ مَايِدَةِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ: أَسْئِلَةٌ لِلتَّأْمُلِ

1- ما هي الأمور التي باستطاعة الكلمات أن تتحقق بينما تعجز الصورة عن تحقيقها؟

2- كيف يعتبر الكلام موضوعاً مركزاً في علاقتنا مع الله عز وجل؟

3- كيف يقود الإصغاء إلى المحبة؟

- These questions come from this week's Family Edition to Rabbi Sacks' Covenant & Conversation. For an interactive, multi-generational study, check out the full edition at <https://www.rabbisacks.org/covenant-conversation-family-edition/eikev/the-spirituality-of-listening>

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*

Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University*



[RABBISACKS.ORG](https://www.rabbisacks.org)

روحانية الإصغاء

عيقيف